الفصل السابع

صفاته وأخلاقه وشخصيته

صفاته وأخلاقه

وصفه تلميذه الأكبر الأستاذ الشيخ محمد عبده بقوله: «إنه يمثل لناظره عربيًّا محضًا، من أهالى الحرمين، فكأنما قد حفظت له صورة آبائه الأولين، من سكنة الحجاز، ربعة فى طوله، وسط فى بنيته، قمحى فى لونه، عصبى دموى فى مزاجه، عظيم الرأس، فى اعتدال، عريض الجبهة، فى تناسب، واسع العينين، عظيم الأحداق، ضخم الوجنات، رحب الصدر، جليل فى النظر، هش بش عند اللقاء، قد وفاه الله من كمال خلقه، ما ينطبق على كمال خلقه، أما أخلاقه فسلامة القلب سائدة فى صفاته، وله حلم عظيم، يسع ماشاء الله أن يسع، إلى أن يدنو منه أحد ليمس شرفه أو دينه. فينقلب الحلم إلى غضب، تنقض منه الشهب، فبينما هو حليم أواب، إذا هو أسد وثاب، وهو كريم، يبذل مابيده، قوى الاعتماد على الله لايبالى ما تأتى به صروف الدهر، عظيم الأمانة، سهل لمن لاينه، صعب على من خاشنه، طموح إلى مقصده السياسى، إذا لاحت له بارقة منه تعجل السير للوصول إليه، وكثيرًا ما كان التعجل علة الحرمان، وهو قليل الحرص على الدنيا، بعيد عن الغرور بزخارفها، ولو بعظائم الأمور، عزوف عن صغارها، شجاع، مقدام، لا يهاب الموت، كأنه لا يعرفه، إلا أنه حديد المزاج، وكثيرًا ما هدمت الحدة ما رفعته الفطنة، إلا أنه صار اليوم فى رسوخ الأطواد وثبات الأفناد، فخور بنسبه إلى سيد المرسلين ﷺ، ولا يعد لنفسه مزية أرفع ولا عزًّا أمنع من كونه سلالة ذلك البيت الطاهر، وبالجملة ففضله كعلمه، والكمال لله وحده».

وقال أيضا: «بقى علينا أن نذكر وصفا لو سكتنا عنه سئلنا عن إغفاله. وهو أنه كان فى مصر يتوسع فى إتيان بعض المباحات، كالجاموس فى المتنزهات العامة والأماكن المعدة لراحة المسافرين وتفرج المحزونين لكن مع غاية الحشمة وكمال الوقار، وكان مجلسه فى تلك المواضع لا يخلو من الفوائد العلمية، فكان بعيدًا عن اللغو منزهًا عن اللهو، وكان يوانيه فيها كثير من الأمراء وأرباب المقامات العالية وأهل العلم، وهذا الوصف ربما عده عليه بعض حاسديه، لكن الله يحب أن تؤتى رخصه، كما يحب أن تؤتى عزائمه، وأى غضاضة على المرء المؤمن فى أن يخرج بعض همه بما أباح الله له، هذا مجمل من أحوال السيد جمال الدين الأفغانى أتينا به دفعًا لما افتراه عليه الجاهلون، ولو سلكنا فى تاريخه مسلك التفضيل لأدى بنا إلى التطويل».

وذكر عنه الأمير شكيب أرسلان أنه كان يعظم نفسه عن الشهوات، ولا يرى من اللذات إلا اللذات العقلية العالية، وأن السلطان عبد الحميد حاول أن يعلق قلبه بالمال والبنين، ويشغله بزينة الدنيا، وراوده على الزواج، فأبى وأعرض، وكان ينظر إلى المال نظرة إلى التراب، فلا يدخره، ولا يتناول منه إلا ما هو ضرورى للحياة، وحاول السلطان أن يعطيه رتبة علمية كرتبة قاضى عسكر مثلاً، فأبى أن يقبل الرتبة وأن يلبس كسوتها المزركشة بالقصب، وكذلك رفض قبول أى وسام مهما كان عاليًا.

وقال عنه (أديب إسحق) وكان من تلاميذه «عرفت صاحب الترجمة بمصر، وكنت من مريديه ومحبيه طول مدة الإقامة بالمحروسة (القاهرة) والإسكندرية. أنه أسمر اللون، ربعة ممتلىء، قوى البنية، جذاب النظر، نافذ اللحظ، خفيف العارضين، مسترسل الشعر، بجبة وسراويل سوداء تنطبق على الكاحلين، وعمامة صغيرة بيضاء على زى علماء الآستانة، عزب، عفيف النفس، قانت. كثير القيام، لا ينام إلا الغلس إلى الضحى، ولا يأكل غير مرة واحدة فى اليوم، على أنه يكثر من شرب الشاى والتدخين، قوى العارضة طويل الحجة، واسع المحفوظ، نبيه يكاد يكشف حجب الضمائر ويهتك استار الستائر، ولكنه على فضله، لا يسلم من حدة المزاج»

علو نفسه

ويلوح لنا أن أبرز صفة فى جمال الدين علو النفس، ولعلها الصفة الجامعة التى تصدر عنها صفاته الأخرى واخلاقه؛ وقد احتفظ بهـا فى أشد الأوقـات حرجًا، ولازمته عند اشتداد المحن، وتعاظم الخطوب، مما دل على أنها غريـزة طبعت عليها نفسه العالية، وحسبك دليلاً على ذلك ما كان من موقفه حين نفى من مصر فى أوائل عهد الخديوى توفيق، فقد أنزل إلى البحر فى السويس خالى الجيب، فجاءه قنصل إيران فى ذلك الثغر، وكان معه جماعة من الماسونية، ومعه نفر من تجار العجم، وقدموا إليه مقدارًا من المال على سبيل الهدية أو القرض الحسن، فأبى أن يأخذ منه شيئًا، وقال لهم «احفظوا المال فأنتم إليه أحوج، إن الليث لا يعدم فريسته حيثما ذهب».

وهذه الكلمة وحدها تصور لنا شخصية جمال الدين وعظمته النفسية، وتصلح أن تكون عنوانا لتاريخه المجيد.

عقيدته

قال الأستاذ الإمام عن مذهبه وعقيدته «أما مذهب الرجل فحنيفى حنفى، وهو وإن لم يكن فى عقيدته مقلدًا، لكنه لم يفارق السنة الصحيحة، مع ميل إلى مذهب السادة الصوفية رضى الله عنهم، وله مثابرة شديدة على أداء الفرائض فى مذهبه، وعرف بذلك بين معاشريه فى مصر أيام إقامته بها، ولا يأتى من الأعمال إلا ما يحل فى مذهب إمامه، فهو أشد من رأيت فى المحافظة على أصول مذهبه وفروعه، أما حميته الدينية فهى مما لا يساويه فيها أحد، يكاد يلتهب غيرة على الدين وأهله».

الرد على الدهريين

تدل رسالته فى (الرد على الدهريين) على أنه مؤمن صادق الإيمان، يدعم العقيدة الإسلامية على أسس المنطق والحكمة العقلية، فهو فيلسوف من فلاسفة الإسلام الأعلام.

وسبب وضعه لهذه الرسالة أنه كان فى الهند طائفة تعتنق مذهب الدهريين وتسمى (النتشرية) وهى كلمة إنجليزية نسبة إلى Nature ومعناها الطبيعة، وقد ترددت هذه الكلمة حين إقامة جمال الدين فى حيدر أباد، وسأله الأستاذ محمد واصل مدرس الفنون الرياضية بمدرسة الأعزة بحيدر أباد عن حقيقة هذا المذهب فى كتاب قال فيه «يقرع سمعنا فى هذه الأيام صوت «نيتشر» ويصل إلينا من جميع الأقطار الهندية، ولا تخلو بلدة من جماعة يلقبون بهذا اللقب (نيتشرى)، فما حقيقة النيتشرية وما مذهبهم وفى أى وقت ظهروا؟ فكان جواب جمال الدين تأليف رسالته (الرد على الدهريين).

وقد وضع الرسالة باللغة الفارسية التى كانت شائعة بين المسلمين من الطبقة المثقفة بالهند، ونقلها الاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده إلى اللغة العربية أيام كان منفيًا ببيروت عقب إخماد الثورة العرابية، ويفهم من مقدمة الأستاذ الإمام لترجمة الرسالة أن حكومة الهند الإنجليزية كانت تمد للدهريين فى حبل الغواية لتزلزل عقائد الأمة فى الدين وتضعف من مقاومتها للاستعمار البريطانى، وتلك سياستها فى مختلف البلدان، قال الأستاذ الإمام فى مقدمة الترجمة «نحمد الله على الهداية، ونعوذ به من الغواية، ونصلى ونسلم على خاتم رسله، وآله وصحبه هداة سبله، وبعد فقد أتيح لى الاطلاع على رسالة فارسية فى نقض مذهب الطبيعيين من تصنيف العالم الكامل، محيط المعرفة الشامل الشيخ جمال الدين الحسينى الأفغانى، أما الشيخ فله من لسان الصدق ورفيع الذكر، مالا يحتاج معه إلى الوصف، وأما الرسالة فعلى إيجازها قد جمعت لإرغام الضالين، وتأييد عقائد المؤمنين، مالم يجمعه مطول فى طوله وحوت من البراهين الدامغة والحجج البالغة ما لم يحوه مفصل على تفصيله، دعاه إلى تصنيفها حمية جاشت بنفسه أيام كان فى

البلاد الهندية، عندما رأى حكومة الهند الإنجليزية تمد فى الغى جماعة من سكان تلك البلاد، إغراء لهم بنبذ الأديان، وحل عقود الإيمان، وإن كثيرًا من العامة فتنوا بآرائهم، وخدعوا عن عقائدهم، وكثر الاستفهام منه عن حقيقة ماتدعيه تلك الجماعة الضالة، وممن سأله فى ذلك حضرة الفاضل مولاى محمد واصل مدرس الفنون الرياضية بمدرسة الأعزة بمدينة حيدر أباد الدكن من بلاد الهند، فأجابه الشيخ برقيم صغير يعده فيه بإنشاء رسالة فى بيان ما كثر السؤال عنه، وقد حدانى علو الموضوع وسمو منزلة الرسالة عنه إلى الاجتهاد فى نقلها من لغتها إلى اللغة العربية، فتم لى ذلك بمساعدة عارف أفندى الأفغانى تابع الشيخ المؤلف ورجونا بذلك تعميم الفائدة وتكميل العائدة إن شاء الله»[١].

وأهم ما فى الرسالة إثبات قيمة الدين وضرورته للإنسان وأثره فى رقيه وتقدمه، وأثر الالحاد فى انحطاطه.

وهى تفنيد لمذهب الدهريين. وبيان مفاسدهم. وإثبات أن الدين أساس المدنية وأن الكفر فساد للعمران.

وخلاصة رأى السيد أن الدين أكسب عقول البشر ثلاث عقائد، وأودع فى نفوسهم ثلاث خصال. كل منها ركن لوجود الأمم، وعماد لبناء هيئتها الاجتماعية، وأساس محكم لمدينتها، وفى كل منها حافز يحث الشعوب على التقدم لغايات الكمال والرقى إلى ذرى السعادة، ومن كل واحدة وازع قوى يباعد النفوس عن الشر. ويزعها عن مقارفة الفساد.

العقيدة الأولى: التصديق بأن الإنسان ملك أرضى وأنه أشرف المخلوقات، والثانية يقين كل ذى دين أمته أشرف الأمم، وكل مخالف له فعلى ضلال وباطل، والثالثة يقينه بأن الانسان إنما ورد هذه الدنيا لتحصيل كمال يهيئه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوى، والانتقال من دار ضيقة الساحات كثيرة المكروهات، جديرة بأن تسمى بيت الأحزان وقرار الآلام، إلى دار فسيحة الساحات، خالية من المؤلمات، لا تنقضى سعادتها، ولاتنتهى مدتها، وبين أثر هذه العقائد فى وعى الإنسان.

(١) ص ٢ من رسالة الرد على الدهريين.

أما الخصال الثلاث فهى: الحياء. والأمانة. والصدق.

وأوضح جمال الدين أن هذه الأسس التى أتت بها الأديان هى علة العمران، وعليها تتوقف سعادة الإنسان، وأن الماديين أو الدهريين أو النيتشريين تؤدى تعاليمهم إلى إنكار هذه الأسس، فتنزل الإنسان منزلة الحيوان، وتفقده الباعث على الخير، وتعده لحياة جامدة ضيقة لا قلب لها، ولا ستمو فيها، وفى هذا انتكاس لخلقه، وهدم لكيانه، وحرمان مما أعده الله له.

وقال عن تأثير الإيمان بالله: ولم يبق للشهوة قامع، ولا للأهواء رادع إلا الأمر الرابع أعنى الإيمان بأن للعالم صانعًا عالمًا بمضمرات القلوب، ومطويات الأنفس، سامى القدرة واسع الحول والقوة مع الاعتقاد بأنه قد قدر للخير والشر جزاء يوفاه مستحق فى حياة بعد هذه الحياة، وفى الحق ان هاتين العقيدتين وازعان قويان يكبحان النفس عن الشهوات ويمنعانها عن العدوان ظاهره وخفيه وحاسمان صارمان يمحوان أثر الغدر ويستأصلان مادة التدليس، وهما أفضل وسيلة لإحقاق الحق والتدقيق عند الحد، وهما مجلبة الأمن ومتنسم الراحة، وبدون هذين الاعتقادين لا تقرر هيئةٌ للاجتماع الإنسانى ولا تلبس المدنية سربال الحياة، ولا يستقيم نظام المعاملات، ولا تصفو صلات البشر من شائبات الغل وكدورات الغش فلو خويت القلوب من هاتين العقيدتين لسكنتها شياطين الرذائل، وسدت عليها طرق الفضائل، ومن أين لمنكر الجزاء أن يكف نفسه عن خيانة أو يترفع بها عن كذب وعذر وتملق ونفاق، وقد تقرر أن العلة الغائبة لأعمال الإنسان إنما هى نفسه وكما سبق، فإن لم يؤمن بثواب وعقاب وحساب وعتاب فى يوم بعد يومه، فما الذى يمنعه عن ذمائم الفعال، خصوصًا إذا تمكن من إخفاء عمله وأمن من سوء عاقبته فى الدنيا أو رأى منفعته الحاضرة فى ركوب طريق الرذيلة والعدول عن سنن الفضيلة، وأى حامل يحمله على المعاونة والمرادفة والمرحمة والمروءة وعلو الهمة وما يشبه ذلك من الأخلاق التى لا غنى للهيئة الاجتماعية عنها، ولئن وجد فى أحد الجاحدين شىء من مكارم الأخلاق بمقتضى الغريزة لكان عرضة للفساد أو كان أبتر ناقصًا لفقد ما عده من سائر صفات الكمال.

وبين أن فى الإسلام قواعد محكمة تميزه على سائر الأديان.

أولها: صقل العقول بصقال التوحيد، وتطهرها من لوث الأوهام، فمن أهم أصوله الاعتقاد بأن الله منفرد بتصريف الأكوان يتوحد فى خلق الأفعال، وأن من الواجب طرح كل ظن فى إنسان أو جماد - علويًا كان أو سفليًا - يكون له فى الكون أثر من نفع أو ضر أو إعطاء أو منع، أو إعزاز أو إذلال.. أو نحو ذلك من خرافات، كل واحدة منها كافية فى أعماء العقول وطمس أنوارها.

وثانيها: أن الإسلام فتح أبواب الشرف للأنفس كلها، واثبت لكل نفس الحق فى السمو، ومحق امتياز الأجناس، وتفاضل الأصناف، وقوم الناس بالكمال العقلى والنفسى، فالناس إنما يتفاضلون بالعقل والفضيلة، لا بأى شىء آخر، وقد لا نجد من الأديان الأخرى ما يجمع أطراف هذه القاعدة.

وثالثها: أن الإسلام يكاد يكون منفردًا بين الأديان بتقريع المعتقدين بلا دليل، وتوبيخ المتبعين للظنون، فهو كلما خاطب خاطب العقل، وكلما احتكم احتكم إلى العقل، تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبصيرة، وأن الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة وإهمال العقل وانطفاء نور البصيرة.

ورابعها: ان الإسلام أوجب تعليم سائر الأمة وتنوير عقولها بالمعارف والعلوم، وفرض نصب المعلم ليؤدى عمل التعليم، وإقامة المؤدب الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر. فقال: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ وقال ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾.

وعلى هذه الأركان الأربعة بنى الإسلام، وكل ركن منها له الأثر البالغ فى تقويم المدنية وتشييد بناء النظام، وتدعيم السعادة الإنسانية، وقد دارت حالة المسلمين رقيًا وانحطاطًا على حسب تمسكهم بهذه العناصر وتخليهم عنها.

علمـه

قال الأستاذ الإمام عن علمه: «أما منزلته من العلم وغزارة المعارف فليس يحدها قلمى إلا بنوع من الإشارة إليها، لهذا الرجل سلطة على دقائق المعانى وتحديدها وإبرازها فى صورها اللائقة بها، كأن كل معنى قد خلق له، وله قوة فى حل ما يعضل منها، كأنه سلطان شديد البطش، فنظرة منه تفكك عقدها، كل موضع يلقى إليه، يدخل للبحث فيه كأنه صنع يديه، فيأتى على أطرافه، ويحيط بجميع أكنافه، ويكشف ستر الغموض عنه، فيظهر المستور منه، وإذا تكلم فى الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها، ثم له فى باب الشعريات قدرة على الاختراع، كأن ذهنه عالم الصنع والإبداع، وله لمس فى الجدل، وحذق فى صناعة الحجة، لا يلحقه فيها أحد، إلا أن يكون فى الناس من لا نعرفه، وكفاك شاهدًا على ذلك أنه ما خاصم أحدًا إلا خصمه، ولا جادله عالم إلا ألزمه، وقد اعترف له الأوروبيون بذلك بعد ما أقر له الشرقيون، وبالجملة فإنى لو قلت إن ما آتاه الله من قوة الذهن، وسعة العقل، ونفوذ البصيرة، هو أقصى ما قدر لغير الأنبياء، لكنت غير مبالغ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم».

وقال أديب إسحق عن ذكائه: «ومن عجائب ذكائه أنه تعلم اللغة الفرنسية أو بعضها حتى صار يقدر على الترجمة منها، ويحفظ من مفرداتها شيئًا كثيرًا، فى أقل من ثلاثة شهور بلا أستاذ إلا من علمه حروف هجائها فى يومين، وكان يتتبع حركة المعارف الأوروبية والمكتشفات العصرية، ويلم بما وضع أهل العلم وما اخترعوه جديدًا حتى كأنه قرأ العلم فى بعض مدارس أوروبا العالية».

وكان يعرف من اللغات الأفغانية والفارسية والعربية والتركية والفرنسية جيدًا. واسع الاطلاع فى العلوم العقلية والنقلية. وخاصة الفلسفة. كثير المطالعة. لم يفته كتاب ألف فى تاريخ الأمم وآدابها وفلسفتها إلا طالعه.

مجلسه

كان حين إقامته بمصر يلقى الدروس فى داره، فكانت محط رجال العلماء والأدباء وأذكياء الطلبة، يقضى النهار فى بيته، فإذا جن الليل خرج يتوكأ على عصاه إلى قهوة اعتاد أن يجلس فيها أمام حديقة الأزبكية (قهوة متاتيا)، ويأخذ مكانه فى الصدر، وحوله تلاميذه ومريدوه، وفيهم الشاعر، والأديب، والعالم اللغوى، والطبيب والجغرافى، والتاريخى، والمهندس، وغيرهم من صفوة أهل الفكر والعلم، والوجاهة، فيفيض على محدثيه من بحر علمه.

يقول الأستاذ الإمام: «كان السيد جمال الدين يلقى الحكمة لمريدها وغير مريدها، ومن خواصه أنه يجذب مخاطبه إلى ما يريده وإن لم يكن من أهله، وكنت أحسده على ذلك؛ لأنها تؤثر فى حالة المجلس والوقت فلا تتوجه نفسى بالكلام إلا إذا رأيت له محلًا قابلًا واستعدادًا طاهرًا».

وقال سليم عنحورى عن محدثيه: «إنهم يتسابقون إلى إلقاء أدق المسائل عليه، وبسط أعوص الأحاجى لديه، فيحل عقد إشكالها فردًا فردًا، ويفتح إغلاق طلاسمها ورموزها واحدًا واحدًا، بلسان عربى مبين، لا يتلعثم، ولا يتردد، يتدفق كالسيل من قريحة لا تعرف الكلال، فيدهش السامعين، ويفحم السائلين، ويبكم المعترضين، ولا يبرح هذا شأنه حتى يشتعل رأس الليل شيبًا، فيقفل إلى داره، بعد أن ينقد صاحب المقهى كلما يترتب له فى ذمة الداخلين فى عداد ذلك المجمع الأنيق».

اتساع أفقه السياسى والاجتماعى

كان واسع العلم فى المسائل السياسية والاجتماعية، يتحدث عنها فيبدى الرأى السديد الدال على الحكمة العالية، والمواهب الخلاقة، والتفكير العميق، والتجارب البعيدة الغور.

تأثير الفتح العربى فى الأمم

قال عن تأثير الفتح العربى فى الأمم وسبب انتشار اللغة العربية فيها: «بيان تأثير الوفود على قوم بأحسن مما ألفوه، وأنه أفعل الوسائل بعد القهر، لحكمهم، ولترك الأثر بينهم، يكفى النظر فى ظهور الإسلام وفتوحاته، حربًا كان أم صلحًا، وانتشاره فى أقل من عصر فى أعظم المعمور من الأرض، فقد عم جزيرة العرب، فالشام، فمصر، فالعراقين، فالهند، فأقصى الشرق، حتى (الآستانة)، وها هو قبر خالد أبى أيوب الأنصارى فيها، و «جامع العرب» فى «محلة غلطة» من أكبر الشواهد.

«نعم إن زحف العرب ووفودهم على البلاد إنما كان لتعميم الدعوة الدينية أولا، وإلا فأداء الجزية للدخول مع القوم فى حقيقة المساواة، وللقيام فى حفظ كيان المجموع، وكان من يقبل الإسلام لا إكراه عليه فى قبول العادات وتعلم اللسان، كذلك من أدى الجزية فلا إكراه عليه فى دينه، وباقى مميزاته، بل يبقى على مألوفه، ومؤثرات إقليمه، وخواصه، ولا خطر على قلب فاتح إسلامى أن يعمم آداب قومه ولسانهم أو أن يتخذ لذلك أقل الوسائل.

«إن كل من دان بالإسلام، أو رضى بدفع الجزية قد سارع عن طيب خاطر، وارتياح عظيم للتعرب، والسبب فى ذلك، أن وفود العرب حملت معها أخلاقا فاضلة ظهرت أفضليتها بأجلى المظاهر، مثل الأنفة من الكذب، والوفاء بالعهد، ومطلق العدل، وكمال الحرية والمساواة الحقيقية بين الملك والرعية، وإغاثة الملهوف، والكرم، والشجاعة وباقى الفضائل من الهيئات المتوسطة بين الخلال الناقصة.

«وأمر طبيعى ما لهذه الفضائل والصفات من السلطة الأدبية على من يتخلق بها، لأن الإنسان إنما ينفعل بروحه وشعوره – والانتخاب الطبيعى فطرى فى الحيوان، وأشده ظهورًا ووضوحًا فى الإنسان، لذلك انعطفت قلوب الأمم، على استحسان الوافدين من العرب لبلادهم، سواء البلاد التى فتحت عنوة، ووضعت

فيها الحرب أوزارها، أو صلحًا. وأول مقدمات العادة الاستحسان، ثم المزاولة حتى ترسخ ملكه.

«والاعجاب بآداب قوم، باعث على حب التقرب منهم، وأعظم وسائل التقرب - التفاهم - فيتبارون فى تعلم اللسان، هكذا تم للغرب ورسخ لهم فى معظم ما فتحوه من الأمصار والبلدان والممالك، آثار أدبية فضلاً عن الآثار العمرانية، من لسان وعادة، وأخلاق لم يمكن استئصالها، بل بقيت رغم أنوف من دال من بعدهم من الدول ومن هيئات الحكومات المختلفة، فمصر بينما هى هرقلية رومانية، و (المقوقس) عامل له فيها، أصبحت فى قليل من الزمن إسلامية فى الأغلبية، عربية بالصورة المطلقة، فى كافة مميزات العرب، وهكذا القول فى سورية والعراق، وغيرهما بدون أن يبذل فى سبيل ذلك التغيير أدنى مسعى، أو يستعمل له أقل الوسائل كما ذكرنا.

«نعم إن أكبر حامل، وأفعل عامل، على تعريب أولئك الأقوام هو الفضائل الأخلاقية، والصفات العالية، التى كانت تأتى بها العرب مع بأسهم وشجاعة أبطالهم».

كان واجبا على الترك أن يجعلوا اللغة العربية لغة الدولة الرسمية

جاء جمال الدين بالآستانة أديب تركى، وأطلعه على مذكرات مخطوطة للمؤرخ التركى ضيا باشا، يعترف فيها بأن الترك لم يخلفوا فى البلاد التى فتحوها آثار حضارة وعمران، مثلما ترك العرب من آثار مادية وأدبية لا يقوى الدهر على ملاشاتها، ويقول: إن المسلم والمسيحى واليهودى فى مصر والشام والعراق يحافظ كل منهم قبل كل شىء على نسبته العربية فيقول إنه (عربى) ثم يذكر ديانته، وأن آثار العرب المادية فى الأندلس لا تقل عن آثارهم فى باقى الأمصار. وأغرب من ذلك أن التركى والجركسى والأرناؤوطى وغيرهم من العناصر غير العربية يستعرب متى وجد فى بلد عربى ويمتزج بالمجموعة العربية حتى تخال أنه

(عربى قح)، وأما فى حكمنا فلم نستطع أن نستترك أدنى فئة ممن حكمناهم من الأمم بكمال العدل الإسلامى والسماح التركى ولين الجانب (كذا).

هذا ملخص ما حوته مذكرات ضيا باشا، وقد سأل الأديب التركى السيد جمال الدين عن رأيه فى تعديل هذه الظاهرة فقال ما خلاصته: إن المرحوم ضيا باشا أشكل عليه الأمر حين اعتقد أن الأتراك شابهوا العرب تمامًا بمعنى أنهم دخلوا فى دين الإسلام، ولكن فاته أن لكل دين لسانًا، ولسان الإسلام هو (العربية)، ولكل لسان آداب، ومن هذه الآداب تحصل ملكة الأخلاق، وعلى حفظها تتكون العصبية، فالأتراك أهملوا أمرًا عظيمًا وحكمة نافعة قالها السلطان محمد الفاتح، وأحب أن يعمل بها السلطان (سليم)، وهى جعل اللسان العربى لسان الدولة العثمانية وتعميمه بين من دان بالإسلام من الأعاجم ليفقهوا أحكامه ويمشوا على سنن الارتقاء بعلومه وآدابه، ومكارم أخلاقه، ومحاسن عوائد أهله.

فالعرب ما نجحوا بفتوحاتهم وبشكل الدين الظاهرى فقط، بل بفهم أحكامه، والعمل بآدابه، وذلك ما تم ولا يتم إلا باللسان وهو أهم الأركان.

ولقد قام السلاطين من آل عثمان بفتوحات جليلة، وقربوا إليهم من كان فى عصرهم من فحول العلماء من المسلمين وقد تفردوا إذ ذاك بمعرفة اللسان العربى، وبعض علومه، وعرف أولئك الفحول قدر اللسان العربى، وغالوا فى التقدير حتى أنهم كانوا (على ما قيل) لا يعطون وظيفة علمية إلا لمن يحفظ قاموس (الفيروز أبادى) العربى، وبقى الترك فى فتوحاتهم على هذه الصورة، وفى مجموعهم به بداوة صرفة، لم يتخذوا غير القوة المادية آلة، ولم ينقلوا سواها للبلاد، إنهم تدينوا بالإسلام على أبسط حالاته وأشكاله، ولكن على بعد سحيق من فهم معانى القرآن وآداب اللسان العربى، والعرب لو كانوا مثلهم لما استطاعوا أن يكونوا أحسن أثرًا منهم، ولما كان لهم حضارة ولا مدنية، ولبقوا على بداوتهم، همهم فتح البلاد للاستغلال، وجمع الأموال للرفاه والترف، أو للبذخ والسرف.

إلى أن قال: أما انتشار اللسان العربى فى غير بلاد العرب، فليس للفاتحين

أدنى دخل فيه، ولا اتخذوا له أسبابا ووسائل، بل إن ما وجد فى اللسان العربى من الآداب الباهرة، والحكم والأمثال والمواعظ، هو الذى أحله من الانتشار هذا المحل، حتى أن العرب قبل الإسلام وهم فى تلك الحالة الجاهلية، والبداوة المحضة، وبعدهم عن كل حضارة، كانوا يحلون بآداب لسانهم من أعظم الملوك مثل كسرى أنوشروان، محلًا رفيعًا، ويأخذون الجوائز، ويشرون بتجارتهم مع الأعاجم بآداب لسانهم، وما يجرى على ألسنتهم من الحكمة التى تأخذ بمجامع القلوب، هكذا كان الذكاء العربى الفطرى المتوقد، يناسبه سلاسة اللسان وأدبه، فكان إذ ظهر بين العرب حكيم طبيب مثل (الحرث بن كلدة) مثلًا، استطاع بآداب اللسان وفرط الذكاء أن يقارع ويضارع أكبر حكيم من الفرس مع حضارته ومدنيته، وكذلك الشاعر فى قبيلته إذا نبغ أجلته القبيلة، واعتبرته حامى ذمارها بأدبه وشعره، وأغنته بالمال والماشية، وأما فى الحضارة الإسلامية، وفى دولها، فكثير ممن برع فى الأدب فأوصله إلى مرتبة الوزارة فالإمارة.

هذا بعض ما لآداب اللسان من التأثير المادى. وأما التأثير المعنوى فيكفى أنه من أكبر الروابط التى تجمع الشتات، وتنزل من الأمة منزلة أكبر المفاخر، فكم رأينا من دول اغتصب الغير ملكها، فحافظت على لسانها حكومة، وترقبت الفرص، ونهضت بعد دحر فردت ملكها، وجمعت إليها من ينطق بلسانها، والعامل فى ذلك إنما هو اللسان، قبل كل ما سواه، ولو فقدوا لسانهم لفقدوا تاريخهم، ونسوا مجدهم، وظلوا فى الاستعباد إلى ما شاء الله.

وقال فى موضع آخر «لننظر فى فتوحات الدولة العثمانية للممالك الإسلامية، من مصر والشام، فحلب، فبغداد، فتونس وسائر الممالك العربية، فنراها قد تمكنت من الفتح مع قليل من المقاومة والحروب، وكان لجامعة الدين التأثير العظيم فى قبول الحكم العثمانى، ولو أن الدولة قبلت من يوم استقلالها، وعملت من عهد السلطان محمد الفاتح، أو السلطان سليم، باتخاذ اللسان العربى – وهو لسان الدين – لسانًا رسميًا وسعت بكل قوتها وجهدها لتعريب الأتراك، لكانت فى أمنع قوة، وآمن حصن من الانتقاض، والخروج على سلطانهم، ولكنها فعلت العكس، إذ فكرت فى تتريك العرب وما أسفهها سياسة، وأسقمه من رأى، لأن

تدين الأتراك بالدين الإسلامى على جهل باللسان العربى، جعل فى القلوب منزلة – ساقت وتسوق الأمة العربية للعطف عليهم مع سائر المسلمين، فما قولك لو تعرب، وانتفى من بين الأمتين، النعرة القومية – وزال داعى النفور والانقسام «بالتركى وبالعربى» – وصاروا أمة عربية – بكل ما فى اللسان من معنى، وفى الدين الإسلامى من عدل، وفى سيرة أفاضل العرب من أخلاق، وفى مكارمهم من عادات، لا ريب لو تيسر ذلك لكان إعادة عصر الرشيد للمسلمين ميسورًا – وجمع شتات الممالك الإسلامية تحت لواء سلطان عادل، همام مثل الفاتح، أو السلطان سليمان، أو السلطان سليم غير عسير، ولكن مع الأسف كان عدم قبول فكرة السلطان الفاتح، أو السلطان سليم لتعميم اللسان العربى – خطأ بينًا – لا يضارعه إلا توغل العثمانيين فى أوروبا، وشبه جزيرة البلقان، وجعل القسطنطينية عاصمة السلطنة والخلافة».

ماهية الجزية

قال جمال الدين فى تفسيرها: إن أهل الكتاب خيرهم الإسلام بين أحد أمرين: إما الاشتراك بأداء الجزية وفيه صلاح الأمر الدنيوى للكافة، والمقصد الأعلى من هذا صون النفوس وعدم سفك الدماء بقليل من مال يؤخذ ينصرف فى المنافع والمصالح المشتركة، وفى تعزيز قوة المجموع، وكذلك يدخل به مع القوم فى ساحة مساواة حقيقية، له مالهم وعليه ما عليهم، ولا إكراه عليه فى دينه بل يكون مصانًا فى شعائره وأصول عباداته وعاداته من كل أذى.

وإما أن يختار الإسلام فيشارك القوم فى العاجل من دنياهم، وسلطانهم، وفى كل ما حوته أخراهم من نعيم مقيم، والغرض الاسمى فى الحالتين كما ترى هو عدم سفك الدماء ووقاية ذلك البناء الإلهى من الهدم، بل يتجسم فيه طلب الهداية لعبادة إله واحد، وتأسيس العدالة، وتوزيع الحق.

لذلك ترى أن كل مصر أو قطر دان بالإسلام، أو دخل فى حوزته خيم فوق ربوعه السلام، ورتع أهله فى بحبوحة من العدل المطلق، وساد فيه الأمن والأمان

وحصلت المساواة على أصح وجوهها باعتراف كل منصف غربى مثل سبنسر أو كارلايل وغيرهما، ممن قالوا الحق ونطقوا بالصدق، وهذا كله لا يشبه بصورة من الصور حروب أهل المدنية الغربية الحاضرة التى يشب ضرامها لتوسيع نطاق البلاد بالإلحاق، أو بالاستعمار، والنتيجة استبعاد الأمم تحت تلك الصور.

انكاره على من يقول بسد باب الاجتهاد

عرف جمال الدين بنفوره من التقليد والجمود، فكان يأخذ بالأحسن من الأقوال، ويرد الضعيف منها، ويجتهد فى الاستنباط، ويتناول الأقرب للصواب وما يقبله العقل.

ذكروا يومًا فى مجلسه قولاً للقاضى عياض فى ذلك، واتخذوه حجة واشتد تمسكهم بذلك القول.. حتى أنزلوه منزلة الوحى، فقال جمال الدين: «يا سبحان الله. إن القاضى عياض قال ما قاله على قدر ما وسعه عقله، وتناوله فهمه، وناسب زمانه، فهل لا يحق لغيره أن يقول ما هو أقرب للحق وأوجه، وأصح من قول القاضى عياض أو غيره من الأئمة، وهل يجب الجمود والوقوف عند أقوال الناس؟ إنهم هم أنفسهم لم يقفوا عند حد أقوال من تقدمهم، لقد أطلقوا لعقولهم سراحها فاستنبطوا، وقالوا، وأدلوا دلوهم فى الدلاء، فى ذلك البحر من العلم وأتوا بما ناسب زمانهم وتقارب مع عقول جيلهم، وتتبدل الأحكام بتبدل الزمان».

ولما قيل له إن ذلك يعد اجتهادًا، وباب الاجتهاد عند أهل السنة مسدود لتعذر شروطه.

فتنفس جمال الدين الصعداء وقال: «ما معنى باب الاجتهاد مسدود؟ وبأى نص سد باب الاجتهاد؟ وأى إمام قال لا ينبغى لأحد من المسلمين بعدى أن يجتهد ليتفقه فى الدين، أو أن يهتدى بهدى القرآن، وصحيح الحديث، أو أن يجد ويجتهد لتوسيع مفهومه منها، والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية، وحاجيات الزمان وأحكامه، لا ينافى جوهر النص.

إن الله بعث محمدًا رسولاً بلسان قومه (العربى) ليفهم ما يريد إفهامهم،

وليفهموا منه ما يقوله لهم ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾. وقال ﴿إنا أنزلناه قرآنًا عربيًّا لعلكم تعقلون﴾. وفى مكان آخر ﴿إنا جعلناه قرآنا عربيًّا لعلكم تعقلون﴾. فالقرآن ما أنزل إلا ليفهم ولكى يعمل الإنسان بعقله لتدبر معانيه وفهم أحكامه والمراد منه، فمن كان عالمًا باللسان العربى، وعاقلاً، وعارفًا بسيرة السلف، وما كان من طرق الإجماع، وما كان من الأحكام مطبقًا على النص مباشرة، أو على وجه القياس، وصحيح الحديث، جاز له النظر فى أحكام القرآن وتمعنها، والتدقيق فيها، واستنباط الأحكام منها، ومن صحيح الحديث والقياس، ولا أرتاب فى أنه لو فسح أجل أبى حنيفة، ومالك، والشافعى، وأحمد بن حنبل، وعاشوا إلى اليوم، لداموا مجدين، مجتهدين يستنبطون لكل قضية حكمًا من القرآن والحديث، وكلما زاد تعمقهم وتمعنهم ازدادوا فهمًا وتدقيقا.

«نعم إن أولئك الفحول من الأمة، ورجال الأمة، اجتهدوا وأحسنوا (جزاهم الله عن الأمة خيرًا)، ولكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن، أو تمكنوا من تدوينها فى كتبهم، والحقيقة أنهم مع ما وصلنا من علمهم الباهر، وتحقيقهم واجتهادهم، إن هو بالنسبة إلى ما حواه القرآن من العلوم، والحديث الصحيح من السنن والتوضيح، إلا قطرة من بحر، أو ثانية من دهر و «الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده». وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون»[١].

الإسلام والاشتراكية

قيل لجمال الدين: إن خير ما فى أوروبا من النهضة هو السوسياليزم Socialisme (الاشتراكية) وهى التى ستؤدى حقا مهضومًا لأكثرية الشعب العامل، فما رأيكم وهل من تعارض بينها وبين الإسلام؟.

فقال جمال الدين ما خلاصته: إن ما تراه من الاشتراكية فى الغرب،

---

(١) راجع (خاطرات جمال الدين الأفغانى) لمحمد المخزومى وكتاب (جمال الدين الأفغانى. تاريخه ورسالته) وكتاب (صيحة جمال الدين الأفغانى التى بعثت الشرق من سباته وبصرته بحقوقه وواجباته) لمحمود أبو رية.

وما تتوخاه من المنافع بذلك المذهب، فى شكله الحاضر، وأسسه، وتخبط واضعى مبادئه – كل ذلك يعكس نتائج الاشتراكية، ويجعلها محض ضرر بعد أن كان المنتظر منها كل نفع.

«الاشتراكية الغربية» ما أحدثها، وأوجدها إلا حاسة الانتقام من جور الحكام، وعوامل الحسد من العمال لأرباب الثراء – الذين إنما أثروا من وراء كدهم وعملهم، وادخروا كنوزهم فى الخزائن، واستعملوا ثروتهم فى السفه وبذلوها فى السرف، والتبذير، والترف – على مرأى من منتجها، والفاعل العامل فى استخراجها من بطون الأرض، ومن ترابها و ... و .... الخ، وبالاختصار ثمرات عمل العامل بكل أنواع حاجة العمران.

«فكل عمل يكون مرتكزًا على الإفراط لابد أن تكون نتيجته التفريط.

«أفرط الغربيون (الأغنياء) فى نبذ حقوق العمال والفقراء وراء ظهورهم، فأفرط العمال فى مناهضة أهل الثروة، وغاصبى حقوق الأمة – بالمناصب ومسببات الجاه – فلا قاعدة دينية يرجع إليها، ولا سلطان وازع يعمل بقهر لصالح المجموع، لذلك أصبح أمرهم فى الاشتراكية «فوضى» ولسوف ينعكس أمرها.

«أما الاشتراكية فى الإسلام» فهى ممتزجة بالدين الإسلامى، ملتصقة بخلق أهله منذ كانوا أهل بداوة، جاهلية.

«فأول من عمل بالاشتراكية بعد التدين بالإسلام هم أكابر الخلفاء من الصحابة – وأعظم المحرضين على العمل بالاشتراكية هم كذلك من أكابر الصحابة أيضا – وإليك البيان:

«أما أن الاشتراكية من خلق البداوة فالبرهان عليه ما كان من أهل الثراء منهم، ومواساتهم لأهل قبيلتهم وعشيرتهم، ولا أعد كثيرا من ذلك بل أجتزئ بمن اشتهر منهم، مثل حاتم الطائى فى السنين المجدبة وكيف أنه نحر مالديه (وهو فرسه) لمجرد مجىء امرأة من أقصى قبيلة طيئ إذ قالت له: يا حاتم قيل لنا إن عندك لحمًا ذبيحًا فأتيت بصبيتى.

فقال «صدقت»، ثم نحر فرسه، وأشعل ناره (تلك العلامة التى كانت كدعوة للمجموع يعلمون أن هناك طعامًا ما) فيأتون لمكان الدخان فى النهار، ولشعلة النار ليلاً، ويشتركون جميعهم فى المأكل دون أدنى منة لصاحبها، لأن الأمر بينهم مناوبة يفعله الميسور، والثرى كل على نسبته وما لديه من سعة، وقد تواتر الخبر بأن حاتمًا لم يذق من ذلك اللحم شيئًا مع كونه قرما، سغبا[١].

«هذا مثل من الاشتراكية قبل الإسلام ومنه يعلم أن الثروة كانت ولا تزال موجودة فى الأفراد ولكن حسن استعمالها، وجعل نصيب للآخرين فيها يجعل الاشتراكية أمرًا مقبولاً، وصفة ممدوحة - إذ لا أنانية، ولا أثرة، ولا استطالة على الفقير - بينما موجد ومسبب ومهيئ تلك النعم كلها - هو ذلك العامل الفقير. الذى يسكن كوخًا صغيرًا.

«هذا ما عليه اليوم أهل الثروة فى الغرب، وهذا ما استنفر طبقة العمال للمطالبة بالاشتراكية - وفى نفيرهم روح الانتقام، والإفراط فى المطالبة بحقهم يقابله التفريط فى زجرهم، وعدم الرضوخ لما يطلبونه من الحق ولسوف يتفاقم الخطب، وتعم من جراء ذلك البلوى فى الغرب، ولا يسلم منها الشرق.

«أما الاشتراكية فى الإسلام، فهى خير كافل لجعلها نافعة مفيدة، ممكنًا الأخذ بها لأن القرآن أشار إليها بأدلة كثيرة، منها أن المسلم أول ما يقرأ من فاتحة الكتاب ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ فيعلم أن للخلق ربًا واحدًا وهو مع سائر الخلق من المربوبين على السواء، ويرى، ويعلم أن القرآن أتى على ذكر أرباب القوة ورجال الحرب، والغزاة، ومن يتولى إمرتهم، وقيادتهم، فخاطبهم آمرًا، ومعلمًا، ومدافعًا، ومبينًا حقوق المستضعفين من الأمة الذين لم يتمكنوا من الاشتراك مع من ذكر ليكون لهم من ذلك الجهاد، وتلك المساعى نصيب إذ قال ﴿واعلموا أن ما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شىء قدير﴾.

---

(١) القرم: الشديد الرغبة فى اللحم. والسغب: الجائع.

هذه آية باهرة أوجبت على من يسعى مجاهدًا، ومخاطرًا بحياته أن يكون مشتركًا معه فى نتيجة غزواته وغنائمه، من لم يكن مشتركًا فعلًا - فأعطى أولا «الله تعالى» نصيبا ومرجع ذلك النصيب لعباده - ثانيا «للرسول» ثالثا «لذوى القربى» وهم لا شك من المستضعفين الذين إنما قعدوا عن الاشتراك فى الجهاد، والسعى وراء الغنائم، لعلل تختلف أشكالها، وأنواعها، ولكن الدين لم يجز حرمانهم بل جعل لهم نصيبا من مساعى أولئك الأشداء، الأقوياء المجاهدين، الخائضين غمرات الموت. كل ذلك نراه مبنيًا على حكمة الاشتراك، ولبث حكم هذه الآية جاريا، وكان الرضا به شاملًا لمجموع المسلمين، من مجاهد أو قاعد عن الجهاد لعلة، فبدأ بالدرجة الأولى بعد الله ورسوله بذوى القربى من المجاهدين على درجاتهم، وعطف على من دونهم فى المرتبة الثانية، ممن ليس لهم فى المجاهدين أقرباء، فقال «واليتامى»، ثم وسع نطاق الاشتراكية فقال «والمساكين»، ثم رأى أن يأخذ نطاقًا أوسع فقال «وابن السبيل»، أى عابره، فتم بهذا الشكل نوع من الاشتراكية لم يكن أوسع منه شكلًا، ولا أنفع، ثم جاء فى موضع آخر من الكتاب مقرعا لمن يكنزون الذهب والفضة، ثم حبذ وأثنى على الذين يؤثرون على أنفسهم بالعطاء والإسعاف والإطعام ولو كان بهم خصاصة.

وهكذا ترى قانون الاشتراكية المعقول فى آيات من القرآن تترى.

ثم قال: «لما كان مذهب الاشتراكية كبقية المذاهب والمبادئ، له طرفان رأى الشارع الأعظم أن تنعم فريق من قوم، وشقاء فريق آخر فى محيط واحد، وبمساع ليس بينها وبين مساعى الآخرين كبير تفاوت - مما لا يتم به نظام الاجتماع - وكان النبى ﷺ «بالمؤمنين رحيمًا» فجاءه عن طريق الوحى وهو نتيجة تمحيص نزعات النفس البشرية، وما عسى أن ينجم من المضار أو المنافع لها - فوضع للدين أركانًا خمسة، ومن تلك الأركان «فرض الزكاة» فى المال، والركاز والأنعام.. الخ. ثم أضاف إليها كما سبق «غنائم الحروب»، فأخذ منها قسطًا بمقدار الخمس - ثم بعد ذلك حرص على بذل «الصدقات».

* * *

هذا ما قاله جمال الدين الأفغانى عن الاشتراكية الإسلامية، فالإسلام جعل

الزكاة من أركانه ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾.

فالزكاة هى الاشتراكية الإسلامية، وهى عماد العدالة الاجتماعية والفارق بينها وبين الاشتراكية الغربية أنها فى الغرب قد تطورت وتطرفت، وتولدت عنها الأحقاد والضغائن بين طبقات الشعب، وجعلت الأمن والنظام فى حاجة إلى حاكم بأمره يضع حدًا لوقف الحرب بين الطبقات، أو يغلب طائفة المعدمين على طائفة الطبقة الموسرة والمتوسطة اليسار، فى حين أن اشتراكية الإسلام أساسها التعاون والتعاطف والتراحم وتجنيب البلاد ويلات حرب الطبقات.

والزكاة واجبة فى الأموال النقدية وفى عروض التجارة بنسبة (ربع العشر) ٢,٥٪ وتقدر بنحو ذلك فى غيرها، وهى ليست إحسانًا، بل هى فرض يلتزم به المواطنون بشروطه، وتشرف الدولة على تحصيله كشأن الضرائب العامة، وهو نظام اجتماعى سديد يبقى على الملكية الفردية وعلى النشاط الاقتصادى الفردى، ويتدخل فى توزيع العدالة الاجتماعية بين الطبقات وتتولى الدولة صرف حصيلته على ما يحقق مصالح المواطنين جميعًا.

جواز الفائدة اليسيرة فى القروض

قال جمال الدين الأفغانى: إن الإسلام حرض على بذل الصدقات وحرم الربا بنكتة غاية فى الحكمة، وهى أن لا يؤكل الربا أضعافًا مضاعفة، وهو ما وقع عليه التحريم، ولكى يكون للإمام مخرج إذا اقتضت المصلحة التسامح للحكم بجواز الربا المعقول الذى لا يثقل كاهل المدين ولا يتجاوز فى برهة من الزمن رأس المال، ويصير أضعافًا مضاعفة، وفرق صراحة بين احتيال المرابين المتلبسين بالدين الذين يتظاهرون بتجنب الربا ببيعهم سلعة قيمتها الحقيقية مائة درهم يتجرون عند بيعها مع المشترى المضطر بثلاثمائة درهم، وحقيقة هذا الفرق ما هو إلا نصيب الربا وعينه، وإنما يجعلونه عن طريق البيع، ويخدعون أنفسهم بأنهم تخلصوا من ارتكاب جريمة الربا التى حظرها عليهم الدين، وإليك بعض

ما جاء فى هذا الشأن من القرآن: ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس، ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا، وأحل الله البيع وحرم الربا، فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى، فله ما سلف وأمره إلى الله، ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، يمحق الله الربا ويربى الصدقات، والله لا يحب كل كفار أثيم﴾ وقال ﴿يـأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾.

ورأى الحكيم الأفغانى فى هذا الصدد قريب من رأى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده الذى أفتى بأن أرباح صندوق التوفير بمصلحة البريد لا حرمة فيها وهى لا تتعارض مع تعاليم الدين فى شىء.

سخطه على الاستعمار
ودعوته إلى مقاومته والتحرر منه

قال جمال الدين يصف الاستعمار وأسبابه ومعناه وأهدافه والوسائل لمقاومته والتحرر منه:

«لقد برز الأوروبيون فى ضروب السياسة لتوسيع ممالكهم، وتفننوا فى إيجاد الوسائل المؤدية لذلك وكان أسبقهم فى الدهاء وأكثرهم فى الاستيلاء (الإنكليزى)، وهم فى مقدمة من رأى من دول الغرب - أن فتح البلاد، وتملكها بالجيوش، والكفاح والقتال من مزعجات الأمور وأن الدخول من باب المكر، واللبن، والخديعة والختل، أوفر، وأسهل، وأقرب وأفعل، فاعتمدت هذا الأخير سلاحًا، ونالت به نجاحًا، وتركت الأول وهو (الحرب والقتال) وفتح البلاد غلبًا وقهرًا، ورجعت للثانى، وألبسته من الأسماء طيلسانًا لين الملمس، هين الملبس ودعته (بالاستعمار) ودعت ما يؤخذ من الممالك (مستعمرات)، وجرت فى هذا المضمار فكانت (المجلى)[١] وحازت قصب السبق وتبعها غيرها من الدول فكانوا (السكيت)[٢].

(١) المجلى: الفرس السابق فى الميدان. (٢) السكيت: أحط مراتبها جريا.

إن هذا الاستعمار لغة، واصطلاحًا، مصدرًا، واشتقاقًا. لا أراه إلا من قبيل أسماء الأضداد وهو أقرب إلى «الخراب» و «التخريب» وإلى «الاسترقاق». والاستعباد منه إلى العمار، والعمران.

لا تسير دول الاستعمار إلا إلى البلاد الغنية فى ثروتها ومعادنها، وخصب تربتها ومن كان أهلها فى الدرك الأسفل من الجهل، قد خيم عليهم الخمول، لا يبدون حراكًا، ولا يقربون عراكًا.

«وإذا صادفت دول الاستعمار (على طريق الشذوذ) فى بعض الممالك أو المقاطعات مقاومة من سلطان أو أمير، فما هى إلا مناوشة صغيرة مع تلك المعدات الحربية الحديثة – وقد سقط الملك، أو الأمير أسيرًا، فسيق مع أهل بيته ذليلًا، وحجر عليه فى أضيق البلدان، وأبعدها عن العمران، وتدخل المملكة أو الجزيرة أو المقاطعة وتنتظم فى سلك المستعمرات فيصبح أعزة البلاد أذلاء، ويحل محل الحرية الشخصية الاستعباد، وكم الأفواه – وينتصب الميزان، ليحاسب من تطرف عينه من الأهلين، أو يشخص ببصره، أو يلتفت إلى ورائه، ليس لأحد من خيرات بلاده شىء، وكل الضرائب، والضربات، والشر والويلات، لأهل البلاد وعليهم، لا يشاركهم فى ذلك أحد.

«هذا إذا كان الدخول للبلاد «بلعبة حربية» – وأما إذا دخلوها من باب الانتصار للأمير، أو تثبيت الملك، أو قمع الثورة، وكانوا فى لباس الأصدقاء، الأمناء، المخلصين أو المحبين للشعب ورقيه، وتعليمه دروس الحكم الذاتى، ليستغنى عنهم ويحكم بلاده بذاته!! – فهناك تبقى مظاهر الأمور محفوظة، وبعض التقاليد التافهة مأمونة، يشكلون للأحكام، وإدارة مهام البلاد هياكل من الناس، ويتركون معهم أمير البلاد قبة جوفاء يرجع منها صدى الصوت فقط، وليس له من الأمر إلا اتباع الأمر لا غير ومختصر القول – إن الاستعمار بمعناه الصحيح، ومبناه الصريح هو تسلط دول، وشعوب أقوياء علماء على شعوب ضعيفة جهلاء ولا يخرج عامل الغلب، والقهر عما ذكرناه فيما سبق وهو أن القوة والعلم يحكمان ويتحكمان فى الضعف والجهل، سنة ثابتة، وقانون متبع فى الكون.

«ولما كان لحياة الأمم والدول – أدوار، وآجال ولحدوثها وتكوينها، وتعاليها ثم

توقفها وانحطاطها أسباب وعوامل هكذا وجب أن يكون الاستعمار خاضعا لتلك النواميس الكونية بمعنى أنه يصل إلى حد محدود وأجل معلوم.

«وانقضاء أجل الاستعمار إنما يتم بزوال الأسباب التى مكنت أهله من التسلط وأكرهت الشعوب على الخضوع لهم.

«نعم متى ضعف ما كان سببًا فى الصعود - يحصل الهبوط - والانحطاط - ومتى زال ما كان سببًا فى السقوط يحصل الصعود دور للحاكم والمحكوم، وقاعدة هى بحكم اللازم والملزوم.

«يحصل للضعيف من صدمة القوى «دهشة ورجفة». ويحدث من آثار العلم على الجاهل «خشية» فيقف بين هاتين القوتين منذهلاً، حائرًا، ذليلاً، صاغرًا كما هو الحال مع أهل الاستعمار، والمستعمرين، إذ ير الدور الأول بين تجبر وتكبر، وعسف، وجور، وأهل المستعمرات قد أدهشتهم المفاجأة، وأذهلتهم الصدمة - فيقابلون كل قول بالسمع والطاعة ويفعلون ما يؤمرون بكمال الخضوع، فيصادرون فى معنوياتهم، من حرية شخصية، وعزة نفسية، وحرمة ملية، أو جامعة قومية، ثم يأتى دور القضاء على مادياتهم - فيحرمون من خيرات بلادهم، ومن كسب تجارتهم، واستثمار مناجمهم، وبالإجمال الحرمان المطلق من كل خير، وإنزال كل شر وضير فيرزحون آخر الأمر تحت أثقال الضرائب وتتحمل أجسامهم مالا تطيق، فعند الوصول إلى هذا الحد من إرهاف الحد تظهر على الأمة عندئذ بعض آثار الحياة وهو ما يشبه «الاختلاج» فإذا التقوا أفرادا أخذ كل منهم ينظر إلى الآخر فيهزون رءوسهم هزًا خفيفًا، ويفركون أيديهم فركًا غير منتظم، ويحكون رقابهم، هذه هى أول مظاهر الثورة ثم تجول الأفكار، وبعده يبدأ الهمس، ثم الهذمة، ثم وثم إلى أن يعلو الصوت، ويرتفع السوط، ويحكم السيف ويأتى من بعده حكم العادل وهو سبحانه ولى المظلومين.

«ولو جاز لدولة أن تشذ فتعامل المستعمرات بشىء من العدل، ولم ترهقهم ظلمًا، وتسومهم جورًا وعسفًا - للزم أن يكون ذلك الشذوذ بمعاملة الإنكليز لمستعمرة «أميركا» وبينها وبينهم من جامعات اللسان، والدين، والمذهب والأخلاق ما يدعو للعطف، ويحمل على الإقلال من العنف.

«ولكن هيهات!! فليس لقاعدة الاستعمار من شاذ وكلنا يعلم ما عاناه الأميركانيون من جور الحكومة الإنكليزية، وتفننها بأنواع المظالم، وسلب أموالهم بأشكال الضرائب، وآخر ضريبة، أو ضربة نبهت الأميركانيين ودفعتهم لطرح نير إنكلترا بقوة السلاح، ونهوض الأمة «ضريبة ورقة التمغة» وأن صكوك البيع وكافة العقود والعهود إذا لم تكن محررة على تلك الورقة لا يعمل بها.. وناهيك بما فى هذا الحكم من الجور وضياع أملاك وحقوق - نعم لجأ الأميركانيون فى بدء أمرهم إلى ما يلجأ إليه الضعيف، إذ بعثوا بالشكوى إلى عاصمة الإنكليز ومجلس أشرافهم - عقب أن عقدوا جمعية عمومية فى مدينة نيويورك، وعقب أن أوسعوا «مأمور بيع ورق التمغة» ضربًا واتفقت كلمة الجميع على الرفض، وهذا أول طلائع القوة التى لا يرضخ الإنكليز لقوة سواها، وهو اجتماع كلمة «الأمة».

خدرت أعصاب الأميركانيين بأبطال ورقة التمغة، وفى الوقت ذاته أحدثت ما يمكنها من سلب مال الولايات المتحدة، فوضعت رسم الكمرك على ما يدخل إليها من الشاى. وهذا الرسم أكثر سلبًا للمال من التمغة - وعمدت فى التنفيذ إلى استعمال القهر والقوة، ولما كانت روح الحياة فى الأميركانيين قد دبت وجازت وتخطت دور «الاختلاج» و «والهمس» ووصلت إلى دور ارتفاع الصوت، وسل السيف - فرمت بالشاى الوارد إلى البحر ووقفت للقوة الإنكليزية بقوة الأمة الأميركانية. وألقت مقاليد أمورها وإدارة حروبها الوطنية إلى بطل حريتهم واستقلالهم «الجنرال واشنطون» العظيم.

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب

«قل لى لو ثابر الأميركانيون دهرًا على بث الشكوى من ولاة الانكليز إلى مجلس وزراء الإنكليز، واستنفدوا المداد، وسودوا ما فى الأرض من قرطاس تظلمًا واستغاثة، هل كان يفيدهم فى استقلالهم شيئًا، أو يكشف عنهم بلاء استعمار البريطانيين؟ لا والذى جعل الجنة تحت ظلال السيوف.

«فقوة كل أمة كامنة فى أفرادها، لا يظهرها إلا الاتحاد، ولا يخفيها إلا التفرق. فمن رام من الأمم استعادة مجدها، والتخلص ممن أذلها، فليس غير

طريق «الاتحاد» ما يوصل إلى الغاية وينقذ من البلاء ولا غير حب الموت ما ينجى من الموت، وينيل المرء إحدى الراحتين، فإما أن يعيش بحريته واستقلاله سعيدًا. وإما أن يموت دونها (بطلًا شهيدًا).

«أروني مملكة، أو أمة انغمس ملوكها، وامراؤها فى السفه، والسرف وعم الجهل طبقات الشعب، وتفرقت كلمتهم فاستكانوا للذل والهوان، ولم يستعبدها الاستعمار، ويحل فيها الدمار!!.

«وهاتوا، مملكة أو قارة - اتفقت كلمة أهلها، وانفت من الذل، ورفضت الاستعباد واستلت السيف، وطاب لها الحتف ولم تنل استقلالها والتمتع بحريتها ولو كان المستعمر أعظم الدول قوة واقتدارًا.

«هل من حاجة للإتيان بالأدلة، وضرب الأمثلة على أن أصغر الأمم ناهضت أعظم الدول - وظفرت بحاجتها، ونالت حريتها واستقلالها؟

من هم اليونان سكنة ولاية المورة؟ قبل أقل من عصر عندما ناهضت الدولة العثمانية، تلك الدولة التى كانت تحكم ستين مليونًا من النفوس إذ ذاك - واليونان إلى اليوم لم يتجاوزوا فى متفرق المعمورة مليونين.

«كم عدد المصريين؟ وهل تجاوزوا بعد استقلالهم مليونين ونصف مليون نسمة تقريبًا؟!

«ماهو الجبل الأسود؟ - ومجموع سكانه لم يبلغوا عدد سكان محلة «بك أوغلو» فى الآستانة - وما هى قوته، وجيشه، بالنسبة لقوة، وجيش الدولة العثمانية!، وهكذا القول فى بلغاريا، ورومانيا.

«فبعد هذه الأدلة المحسوسة، والأمثلة الملموسة - لايصح أن يبقى أدنى ريب، أن المستعمرات لأى دولة مهما تعاظمت قوة، واقتدارًا كالثوب العارى لا يلبث حتى يسترد عند طلب صاحبه بالسنن المعروفة، والطرق الموصوفة.

وهل يشك المصريون وهم يزيدون عن العشرة ملايين[1] وكلهم أحفاد الغزاة،

---

(١) هذا كان عدد سكان القطر المصرى يوم كتبت هذه المقالة سنة ١٣١٠هـ ١٨٩٣م (خاطرات جمال الدين الأفغانى لمحمد المخزومى).

الفاتحين من أعز قبائل العرب وإخوانهم الأقباط أحفاد أولئك الأشداء الذين تدل آثارهم على عظم همهم إنهم إذا نهضوا لم يظفروا بالاستقلال، والحرية وإعادة المجد القديم لذلك القطر السعيد فحسب، بلى إنهم سينهضون إن شاء الله، ويعملون متحدين، معتصمين بحبل الله، وينالون مايتمنون بحول الله، والله على كل شيء قدير».

طريق الغرب إلى استعمار الشرق

قال فى هذا الصدد ما خلاصته «ما من دولة غربية تطرق باب مملكة شرقية إلا وتكون حجتها إما حفظ حقوق السلطان، أو إخماد فتنة قامت على الأمير، أو إنقاذ نصوص الفرمانات، أو غير ذلك من البهتان، والختل، والخداع، وواهى الحجج،

«فإذا لم تكف تلك الأضاليل، تذرعت إما بحجة حماية الأقليات أو حقوق الأجانب وامتيازاتهم، أو حرية الشعب، أو تعليمه أصول الاستقلال، أو إعطاء الشعب حقه تدريجيًا فى الحكم الذاتى، أو إغناء الشعب الفقير بالإشراف على موارد ثروته، فالشعب الخامل يرتاح إلى تلك المواعيد ويرضخ للحجر الغربى.

ولأجل أن يصل الغربى إلى الاستيلاء على بلد ما، يضع خطته وهى:

أولا: إقصاء كل وطنى حر يمكنه الجهر بمطالب وطنية.

ثانيا: تقريب الأسقط همة، والأبعد عن المناقشة والمطالبة بالحق.

ثالثا: الدخول على البلاد بتفريقها طوائف وشيعًا».

ومن يتأمل فى أقوال جمال الدين الأفغانى يجد ولا ريب أنها صادرة عن إيمان عميق بالحرية والاستقلال. عقيدة راسخة فى بغض الاستعمار والثورة عليه، ودعوة صادقة إلى الشعوب الشرقية أن تنهض وتتحرر من ربقة الاستعباد والاستعمار.

رأيه فى السلف والخلف

وقال عن السلف والخلف: «الكون يشهد، والآثار تدل، ولا من يفكر أن للعرب، وغيرهم من العجم - آثارًا ومفاخر أتت من وراء الهمم، وصدق العزائم معه ولكنها يا للأسف وقفت فى أجداث الأجداد، وجاورت عظام أولئك العظام - أعلام المروءة، عصبة الرحمة، أولياء الشفقة، أهل النجدة، أسود الحمية، وغوث المضيم يوم الشدة، شوامخ القوة، رواسى العدل - تلك بعض صفات السلف - عثر عليها الخلف بالنبش وهو فى جبانة «الجبن» و«الخمول» - وقرأها فى سطور كتاب حادثات الدهر، وأوراق سجل رجال العالم - فطفق يفخر، ويعدد، ويصول، ويطول، ويقول: نحن من لمعت سيوف أجدادهم بالمشرق، وانقضت شهبها على المغرب، فذلت لهم رقاب القياصرة، والأكاسرة، وخضعت لأمرهم الأمم، خفقت أعلام فتوحاتهم فوق ممالك الأرض فطهروها من جراثيم الظلم والجور وملأوها بالرحمة والعدل -وهكذا لاتزال تسمع كلا من العربى، والفارسى وغيرهما من الشرقيين - يقول نحن أحفاد أولئك الأجداد، ونحن سلالة وذرية أولئك الأقيال الأمجاد، ونحن ونحن مما يثير الأشجان، ويزيد الأحزان.

«نعم أولئك آباؤنا، وأجدادنا قد جاد الزمان بهم فجاءوا ولكن وا سوأتاه. وا معرتاه، وا خجلتاه!: - إذا هم سألونا عما فعلنا بمخلفاتهم، وما ورثوه لنا، واستخلفانا عليه من الممالك، والأقطار وعظيم المدن، والأمصار.

«نعم أين أنتم أيها الأجداد، الأمجاد، القوامون بالقسط، الآخذون بالعدل. الناطقون بالحكمة، المؤسسون لبناء الأمة؟! ألا تنظرون من خلال قبوركم إلى ما أتاه خلفكم من بعدكم، وما أصاب أبناءكم ومن ينتحل نحلتكم؟!.

انحرفوا عن سنتكم - وحادوا عن طريقكم - فضلوا عن سبيلكم - استبدلوا كل فضيلة برذيلة، وأتوا على كل أمر لله بعكسه، نبذوا حكمة الدين واتباع شرع سيد المرسلين، وتفرقوا فرقا، وأشياعًا - الملوك منهم أنزلوا عن

عروشهم[١] وذوو حقوق حرموا حقوقهم ظلمًا، وأعزة باتوا أذلة، وأجلاء اصبحوا حقراء، وأغنياء أمسوا فقراء وأصحاء أصبحوا سقامًا، وأسود تحولت نعامًا، فأصبحوا من الضعف على حال تذوب لها القلوب أسفًا، وتحترق الأكباد حزنا، أصبحوا فريسة للأمم الغربية لا يستطيعون ذودًا عن حوضهم، ولا دفاعًا عن حوذتهم.

ألا يصيح من برازخكم صائح منكم ينبه الغافل، ويوقظ النائم، ويهدى الضال إلى سواء السبيل! «إنا لله وإنا إليه راجعون». «نعم - إن للأرواح إشراقا بهياكلها الروحانية - على ماتلبس من الأجسام الترابية فى هذه الدار الفانية، ومناجاة لمن فيه ذلك الاستعداد «إذ الإمداد لا يكون إلا على قدر الاستعداد» - فإذا أصغينا بالحس الروحى إلى ما تريد أن تناجينا به أرواح أجدادنا لوجدناهم يحرقون علينا الأرم ويزعجهم الألم وينادوننا: أيها الأحفاد! تفتخرون بسيوف لمعت بالمشرق - نعم - وقد تركنا لكم تلك السيوف مشحوذة فى أغمادها - فهلا تقلدتموها؟ وهلا سللتموها فى وجه من اكتسح بلادكم، وضرب عليكم الذلة والمسكنة.

تفتخرون بما فتحنا وتركناه لكم من الممالك، وما تحملناه فى سبيل ذلك من المخاطر والمهالك - ولا تخجلون، ولا تحزنون وقد سلبتها منكم الأعداء وأنتم من مقاعد جبنكم، وذلكم تنظرون - ولا تتحركون ولا تنهضون وحتى ولا تنطقون.

«تفتخرون بصبرنا، وثباتنا، وأقدامنا، وبسالتنا، واعتصامنا بحبل الله واتباع سنن نبيه الكريم ﷺ وأنتم على عكس الأمر من أخلاق وصفات، وما أبعدكم بهذا عن الفخر - وأبعد الفخر عنكم - ولأنتم أولى بإطراق الرأس - وغض الطرف خجلاً، وحياء من الله، ومن أرواحنا فى الملأ الأعلى - التى تبرأ إلى الله من صنعكم وقلة إيمانكم بالله، والعمل بما جاء به رسول الله.

«تفتخرون بتمسكنا بأصول الدين، وحسن اليقين - والتزام الكتاب والسنة

---

(١) ممن قاوموا الاستعمار وحاربوه وكانت له الغلبة عليهم.

والعمل بأحكامها - وأنه قد استحكمت بيننا رابطة الأخوة فكنا كالبنيان المرصوص - نعم هكذا كنا - أما أنتم فلم يبق من جامعة بينكم إلا العقيدة الدينية «وليس فى الجميع» مجردة عما يتبعها من الأعمال.

انقطع التعارف بينكم، وهجر بعضكم بعضًا هجرًا غير جميل - علماؤكم وهم القائمون على حفظ العقائد، وهداية الناس إليها - لا تواصل بينهم ولا تراسل مع جمودهم - فالعالم التركى فى غيبة عن حال العالم الحجازى، والعالم الهندى فى غفلة عن شئون العالم الأفغانى - وهكذا - بل العلماء من أهل قطر واحد لا ارتباط بينهم ولا جامعة تجمعهم، ولا صلة إلا ما يكون بين أفراد العامة لدواع خاصة من صداقة، أو قرابة بين أحدهم والآخر - أما فى هيئتكم الكلية فلا وحدة لكم - بل لا أنساب بينكم وكل ينظر إلى نفسه ولا يتجاوزها - كأنه جزء مفصول، أو عضو مبتور.

«تفتخرون بأنه غلب على صفاتنا «التعقل» والتروى وانطلاق الفكر من الأوهام، والعفة، والسخاء، والقناعة، والدماثة، ولين الجانب، والوقار والتواضع، وعظم الهمة، والصبر، والحلم، والشجاعة، والإيثار، والنجدة، والسماحة، والصدق، والوفاء، والأمانة، وسلامة الصدر من الحقد والحسد، والعفو، والمروءة والحمية، وحب العدالة، والشفقة، نعم من الله بها علينا وهكذا كنا - وأنتم أيها الأحفاد! ماذا غلب على أكثركم غير السفه، والقحة، والبذاءة، والبله، والطيش، والتهور، والجبن، والدناءة والجزع، والحقد، والحسد، والكبرياء، والعجب، واللجاج، والسخرية، والغدر، والخيانة، والكذب، والنفاق، والشح. أفبهذه الأخلاق تحبون أن تتغلبوا، وتعجبون كيف تسلب أملاككم، وتذلون؟ أم بهذا ترومون اللحاق بنا وقد خالفتمونا سيرة وسيرا - شيمًا وأخلاقًا؟!.

«هذا بعض ما تحس به أرواحنا من مناجاة أجدادنا لنا - وما أطبق[1] أقوالهم هذه على الحق، وما أقربها من الصواب، والواقع، أى بينة لنا على أننا خلف ذلك السلف - وهل يعقل لو ورثنا أخلاقهم، وحافظنا على فضائلهم،

(١) هكذا الأصل والصواب: أن يقال «وما أشد انطباق - أو مطابقة - أقوالهم».

واقتفينا أثرهم ولم نحد عن سيرهم، وسيرتهم - نعم لو عملنا بعض ذلك هل كان يسهل سلب الميراث منا، وأن يستبد بملكنا غيرنا - أم بقينا نحن الوارثين؟.

«إن «دعوى» حق الأحفاد فى ميراث الأجداد - هى فى محكمة الكون والبينة التى يصدر من بعدها الحكم - هى إثبات التحلى بفضائل السلف، والتخلق بأخلاقهم، والنسج على منوالهم، والتزام ما لزموه من السنن، وجروا عليه بالقول والعمل - فعسى أن نوفق للإدلاء بتلك الحجة - فتستقيم لنا الحجة - إذ كفانا من الذل ما لاقينا، ومن البلاء ما عانينا».

وصفه للإنجليزى والعربى (فى عصره)

قال عن الإنجليزى: إنه قليل الذكاء عظيم الثبات، كثير الطمع والجشع، عنيد، صبور متكبر.

وقال عن العربى أو الشرقى: إنه كثير الذكاء. عديم الثبات. قنوع. جزوع. قليل الصبر. متواضع.

يثبت الإنجليزى حتى على الخطأ إذا تسرع وقاله أو باشره.
والشرقى لا يثبت على الصواب. ولا على طلب حقه.
فيفوز الأول بخير النتائج بفضيلة الثبات.
ويخسر الثانى حقه برذيلة التلون وعدم الصبر.

رأيه فى الأحزاب السياسية فى الشرق

وقال عن الأحزاب السياسية فى الشرق:

«الأحزاب السياسية فى الشرق نعم الدواء، ولكنها مع الأسف لا تلبث حتى تنقلب إلى بئس الداء، نحسن نحن الشرقيين تأليف الأحزاب السياسية، لطلب الحرية والاستقلال، وكل العالم لنا أصدقاء، ونضطر لتركها والكل لنا أعداء.

«والسبب العامل فى ذلك عدم التكافؤ فى القوى بين الأمة وأحزابها السياسية، يقوم الحزب السياسى، بعنصر ضعيف، أو بأفراد قلائل بينهم اللسن، والمحنك، ويعلنون تفانيهم فى خدمة الأمة لتحريرها من ربقة الاستعباد والاستبداد، ويسرون خدمة أنفسهم، فتتألف على أهل الحزب القلوب، وتجتمع حولهم الكلمة، بسوق الضرورة، وداعى الحاجة، ويستحسن عملهم الغريب، ويهوسهم الدخيل، شأن الحوادث المستجدة، فى انقلاب الأمم من طور إلى طور، فالأمة تتخيل من وراء وعود الحزب سعادة، ورفاهة، وحرية، واستقلالاً، ومساواة، على أوسع شكل، قد لا يمكن حصوله فى البعيد الآجل، فضلاً عن القريب العاجل.

«فيؤازرون الحزب بكل معانى الطاعة، والانقياد، والنصرة، والتضحية... الخ.

«فإذا ما تم للحزب ما طلبه من الأمة، واستحكم له الأمر – ظهرت هنالك فى رؤساء الأحزاب، الأثرة والأنانية، ومد حب الذات عنقه، فتتقلص من القلوب تلك الطاعة وتنكمش النفوس عن ذلك الانقياد، وتحصل فى النتيجة النفرة العامة.

«فتضطر عندئذ لترك الحزب، وينفرط بالطبيعة عقده، والكل له أعداء».

وضرب عدة أمثلة، منها ما حصل فى الأفغان وغيرها وما حصل فى حزب عرابى فى مصر.

ثم قال: «لا ينبغى أن يؤخذ من قولى هذا أن لا فائدة من الأحزاب على مطلق الرأى والمعنى، فإن الشرق بعد أن أخنى عليه الدهر بكلكله، ومرت عليه زلازل العنف والجور، وأشكال الاستعباد – إن هذا الشرق، وهذا الشرقى – لا يلبث طويلاً حتى يهب يومًا من رقاده، ويمزق ما تقنع، وتسربل به هو وأبناؤه من لباس الخوف والذل، فيأخذ فى إعداد عدة الأمم الطالبة لاستقلالها، المستنكرة لاستعبادها.

«على هذا الأساس الاجتماعى التدريجى، لا مانع يمنع الشرقى من الانخراط فى الحزب بعد الحزب، وأن يقبل من المواعيد، ما يصدق

وما لا يصدق، حتى يظهر فى الشرق ما ظهر فى الغرب من أفراد يرون الموت فى حياة وطنهم مغنمًا، والحياة فى موت وطنهم مغرمًا.

«حينئذ يكون الشرق قد تسنى له وجود الحزب الذى هو نعم الدواء من داء استعباده، فيجمع شتات أبنائه الذين كانوا أذلة، ويصيرهم بنعمة الإخاء، والاتحاد، والتعاون أعزة - بلادهم لهم وهم لبلادهم نعم الأمناء، يعملون متضامنين فى صالح مجموعهم، ونصرة مظلومهم - يأخذون ما لهم من حق، ويؤدون ما عليهم من واجب وهم لا يحزنون».

مقصده السياسى

قال الأستاذ الإمام عن مقصده السياسى: «إنه كان يسعى لإنهاض إحدى الدول الإسلامية من ضعفها، وتنبيهها للقيام على شئونها، حتى تلحق بالدول القوية، فيعود للإسلام شأنه، وللدين الحنيفى مجده، ويدخل فى هذا تنكيس دولة بريطانيا فى الأقطار الشرقية، وتقليص ظلها عن رءوس الطوائف الإسلامية، وله فى عداوة الإنجليز شئون يطول بيانها». انتهى كلام الأستاذ الإمام.

تقول وقد دل تاريخ السيد على أنه بذل حياته كلها لبعث روح النهضة والحرية فى أمم الشرق قاطبة.

فهو أول زعيم للحرية فى الشرق، وأول باعث لنهضته الحديثة، ولئن لم يشاهد ثمار دعوته وجهوده، فحسبه أنه غارس البذرة الأولى للحركات القومية التى ظهرت فى الشرق منذ نحو تسعين سنة إلى اليوم، وإلى ما شاء الله، وإذا هو لم يشهد نجاح دعوته قبل موته، فليس مرجع ذلك إليه، لأنه قد أدى رسالته على أتم ما يؤديه الزعماء المخلصون، ولكن عاكسته الأقدار، واعترضت سبيله عقبات جمة، بعضها من مكايد الدول الاستعمارية، وخاصة الدولة الإنكليزية، وبعضها من خذلان ملوك الشرق وأمرائه لدعوته واضطهادهم إياه.

فقد رأيت ما أصابه من الخديو توفيق حين ولى الحكم، إذ نقض عهده معه، ونفاه من مصر، وكذلك فعل معه شاه العجم ناصر الدين شاه، فقد استدعاه

لينتفع من علمه وحكمته، وما لبث أن تنكر له وحبسه ثم نفاه، وعرفت ما أصابه فى الآستانة على عهد السلطان عبد الحميد، مما لا حاجة إلى تكراره، وحسبك أن تذكر أنه كان سجينًا فى قصره، ومحاطًا بالعيون والجواسيس، حتى لاقى منيته فى ظروف تدعو للاعتقاد أنه مات شبه مقتول.

فملوك الشرق وأمراؤه كانوا إذن حربًا على جمال الدين، وكانوا من حيث يشعرون أو لا يشعرون عونًا لدعاة الاستعمار فى إحباط جهوده ومساعيه، فليس عجيبًا أن لا يشهد السيد نجاح دعوته فى الإصلاح والحرية، وقد لقى أيضا خذلانًا من أكثر الطبقات، فكأنه كان يرسل دعوته فى صحراء مقفرة، ليس فيها سميع ولا مجيب.

ولا مراء فى أنه قد تقدم الشرق وسبقه إلى الحياة نيفًا ومائة عام، فلم يلبِ الشرق نداءه فى حياته، ولم تظهر ثمار دعوته إلا بعد مماته، وهذا يزيده فضلًا وقدرًا، رنه قام بدعوته فى وقت عز فيه النصير، وقل المستجيب إلى دعوة الحرية والحق.

وقد شعر السيد، وخاصة فى أواخر أيامه، بمرارة اليأس والألم مما لقيه من صنوف الاضطهاد، ونقض العهود والمواثيق، وكم كان حقيقًا بالألم حين يعرض فى ذاكرته مبلغ ما بذله لأمم الشرق من الإخلاص والتفانى فى خدمتها، ثم ما أصابه من كبرائها وأمرائها من التنكر والجحود، وما لقيه من مختلف طبقاتها م الأعراض والخذلان.

ذكر عنه الأمير شكيب أرسلان فى ترجمته[١]: «أنه لقيه بالآستانة سنة ١٨٩٢، وكان من شدة ما يجد من الألم لحال الإسلام تخطر له خواطر نادرة فى هذا الموضوع، فقال له مرة «قد فسدت أخلاق المسلمين إلى حد أن لا أمل بأن يصلحوا إلا بأن ينشئوا خلقًا جديدًا، وجيلًا مستأنفًا، فحبذا لو لم يبق منهم إلا كل من هو دون الثانية عشرة من العمر، فعند ذلك يتلقون تربية تسير بهم فى طريق السلامة».

---

(١) حاضر العالم الإسلامى جـ١ ص٢٠٥.

وقال له مرة أخرى «لم يبق فى الإسلام أخلاق، فهذا محمود سامى البارودى الشاعر الكبير، رئيس الوزراء أثناء الحوادث العرابية عاهدنى ثم نكث معى، وهو أفضل من عرفت من المسلمين»[١]. وقال له أيضا «إن المسلمين قد سقطت همهم، ونامت عزائمهم، وماتت خواطرهم، وقام شىء واحد فيهم، وهو شهواتهم».

بمثل هذه الخواطر كان يعبر السيد عن ألمه من سوء حالة الأمم الشرقية، وهذا الألم يدلك على مبلغ الشعور الذى تملك لبه، وأنه كان يشتعل غيرة على الشرق والإسلام، ويحزن إذ يرى دعوته لم تلق مجيبًا ولا نصيرًا، وإنك لترى صورة الألم والحزن مرتسمة على محياه فى مرضه الأخير، وظل هذا الحزن يلازمه حتى فارق الحياة.

وبعد أن مضت عشرات السنين على وفاته سنة ١٨٩٧، لم ينهض واحد من المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها يبحث عن قبره ويشيد له ضريحًا يليق بذكرى الرجل العظيم الذى أفنى عمره فى بعث الأمم الشرقية وإنهاضها، وبث روح الحياة والحرية فيها، إلى أن قيض الله رجلاً من سراة الأمريكان (المستر كراين)، فأخذ يبحث ويحقق حتى اهتدى إلى قبر جمال الدين بالآستانة سنة ١٩٢٦، فأقام عليه شاهدًا فخمًا من الرخام، نقش عليه اسم السيد، وأدى بهذا الصنيع واجبًا كان يجدر بسراة الشرقيين وعظمائهم أن يؤدوه.

وهذا المظهر المستمر من نكران الجميل يكشف لك ناحية من أسباب التأخر السياسى والاجتماعى فى أمم الشرق قاطبة، فإن الأمم لا تسلك سبيل النهضة الصحيحة إلا إذا عرفت أقدار الرجال الذين أفنوا حياتهم فى سبيل مجدها وعظمتها.

---

(١) الإشارة هنا فيما نعتقد إلى ما كان من نفى السيد جمال الدين من مصر فقد نفى بقرار من مجلس الوزراء وكان محمود باشا سامى البارودى وزير الأوقاف فى ذلك الحين واشترك فى هذا القرار

بعض كلماته الخالدة

لجمال الدين الأفغانى كلمات خالدة تدل على عظمة شخصيته وإيمانه برسالته وقد مر ذكر بعضها فى خلال الحديث عنه وسنذكر هنا أهمها شأنًا[١].

* * *

- لا جامعة لقوم لا لسان لهم، ولا لسان لقوم لا آداب لهم، ولا عز لقوم لا تاريخ لهم، ولا تاريخ لقوم إذا لم يقم منهم أساطين تحمى وتحيى آثار رجال تاريخها فتعمل عملهم، وتنسج على منوالهم، وهذا كله يتوقف على تعليم وطنى، بدايته (الوطن)، ووسطه (الوطن)، وغايته (الوطن).

* * *

- شر أدواء الشرق داء انقسام أهليه، وتشتت آرائهم، واختلافهم على الاتحاد، واتحادهم على الاختلاف، فقد اتفقوا على أن لا يتفقوا.

* * *

- الدخول من باب الذل لا يثمر غير الذل، ومعشر الشرقيين فى الفقر خوف الفقر، وفى الموت خوف الموت.

* * *

- إذا صح أن من الأشياء ما ليس يوهب فأهم هذه الأشياء الحرية والاستقلال لأن الحرية الحقيقية لا يهبها الملك أو المسيطر عن طيب خاطر، وكذلك الاستقلال، بل هاتان النعمتان إنما حصلت وتحصل عليهما الأمم بالقوة والاقتدار.

- ينتصر الحق ويخذل الباطل وإن طاوله الكرم وأمهله العفو ومده الغرور.

---

١) كثير من هذه الكلمات وردت فى (خاطرات جمال الدين الأفغانى) لمحمد المخزومى، وقد أضفت اليها بعض روائع الكلم التى صدرت عن الحكيم الأفغانى.

- بلغ الإجحاف بالشرقيين غايته، ووصل العدوان عليهم نهايته.
- الإنجليز باقعة العالم وأحبال الحيل.

* * *

- أعتقد أن السجن فى طلب الحق من الظالمين العتاة رياضة، والنفى فى ذلك السبيل سياحة، والقتل شهادة، وهى أسمى المراتب.

الذل عدو العلم

- الذل وصحيح العلم ضدان لا يجتمعان.

العلم والعمل به

- علم قليل مقيد فى الصدور يعمل به، خير من علوم كثيرة مسطورة فى الكتب ولكن لا يعمل بها.

* * *

- أضعف ما فى هذا العصر: حق لضعيف لا قوة له ، وأقوى شىء: باطل لقوىٍّ يجعل باطله حقًا.

* * *

- لاخير فى حق لا تدعمه قوة.

* * *

- صاحب الحق قوى ولو كان ضعيفًا، والمبطل ضعيف ولو كان قويًّا.

يمين جمال الدين

- كان يمينه إذا شاء أن يقسم به قوله: «وعزة الحق، وسر العدل».

- عظمة الملك لا تكون بالتيجان، ووقار العلم لايكون بالطيلسان.
- «الاكفاء فى العصر لا يكونون على الغالب أصدقاء».

* * *

- الفقر عدو الفضيلة، والثراء نصير الرذيلة.
- حقيقة الأنفة، وعزة النفس عدم الاتكال على الناس.

* * *

- صاحب القلم لايحتاج إلى عصا.

* * *

- الإفراط فى التواضع دليل على الادعاء.

* * *

- ما مات واحد فى حب أمة إلا وأحبته.

* * *

- لا أمة بدون أخلاق، ولا أخلاق بغير عقيدة، ولا عقيدة بغير فهم.

* * *

- خير موازين الأمم أخلاقها.

* * *

- يقل العلماء متى كثر المتطفلون والمدعون.

* * *

- العلم الصحيح كسب صحيح، بل وراثة لنبوة.

* **

- لا مانع من السفور إذا لم يتخذ مطية للفجور.

* * *

obeikandl.com

خير لون لراية الاستقلال دماء المجاهدين الأبطال.

* * *

- من اعتقد أن لا حياة إلا هذه الفانية، فقد خسر الأولى والثانية.

* * *

- لا يتم عمل والتآلف مفقود، ولا يكون فشل والاتحاد موجود.

* * *

- من عجز عن إصلاح نفسه كيف يكون مصلحًا لغيره !.

* * *

- أمة تطعن حاكمًا سرًّا، وتعبده جهرًا، لا تستحق الحياة.

* * *

- تحتجب الحقائق عن الملوك بقدر تحجبهم.

* * *

- حمال الحطب للاتجار به أنفع من حمال الذهب للادخار.

obeikandi.com